هزل وجد . . .

بقلم ا لد كتور طه حسين

أنفقت أياما عشرة لا تصل إلى فيها الصحف المصرية ولا أعرف من أنباء مصر وثورتها المباركة إلا ما تحمله إلى الصحف الفرنسية أو الإيطالية . وأرادت الظروف ألا يكون فى الفندق الذى أقيم فيه راديو أستطيع أن أفزع إليه مصبحا أو ممسيا لأسمع الأنباء وأساير ما يجد فى مصر من الأحداث . فكنت إذن أعرف شئون مصر من طريق غير مباشرة هى طريق الصحف الأجنبية وما تنشره من هذه الأطراف المقتضبة التى لا تقنع ولا ترضى ولعلها تشوق إلى مزيد من العلم وفضل من المعرفة . وجعلت أظن الظنون وأقدر فى نفسى ألوانا من الفروض تصور لى الحياة الواقعة فى مصر وقد كنت متلهفا إلى الأنباء فكنت أقدر أن المصريين جميعا متلهفون مثلى على الأنباء ، وكنت مشغولا عن كل شى، بالتفكير فى ثورتنا ونتائجها الأولى وأعقابها البعيدة وأثر هذا كله فى حياتنا التى نحياها اليوم وفى حياتنا التى سنحياها غدا أو بعد غد .

ولم أكن أشك فى أن المثقفين من المصريين مشغولون مثلى عن كل شى بهذا التفكير وكنت لا أفكر فى أمس القريب أو البعيد إلا لأوزان بينه وبين اليوم أو لإوزان بينه وبين غد أو بعد غد . وكنت أعتقد أن المثقفين من المصريين مثلى قد أخذت عليهم الثورة وأحداثها وأعقابها كل طريق. فهم قد نسوا أمس وما ثار بينهم فيه من الضغينة والحقد وأصبحوا إخوانا قد صفت قلوبهم من البغض وبرئت نفوسهم من كل سوء وطهرت ضمائرهم من كل موجدة . وقد حفظت فيما حفظت من الآثار أن الإسلام يجب ما قبله فكنت أظن أن الثورة تجب ما قبلها أيضا وكنت مستيقنا أن المصريين لن يفكروا فيما قبل الثورة إلا ليرفعوا ما وقع من الظلم ويزيلوا ما بها من البغى ويردوا الحقوق إلى أصحابها ويضطروا الظالمين والآثمين إلى حياة بريئة من الظلم والإثم جميعا.

كنت أظن هذا كله وكنت أقول لنفسى أن الزمان قد استدار فى مصر كهيئته يوم خلق الله مصر والمصريين فأصبح لا عهد له ببغى ولا طغيان ولا عدوان وإنما مصر بلد صفا جوه وطاب إقليمه يسكنه شعب صفت قلوبه وضمائره وطابت سيرته وسرائره .

كذلك كنت أشعر وكذلك كنت أفكر وبذلك كله كنت مؤمنا وإلى ذلك كله كنت مطمئنا . ولكن الصحف المصرية تصل إلى ذات يوم فأسرع إليها وأعكف عليها فيا لها يقظة مؤذية مزعجة بعد نوم هادئ مستريح وأحلام حلوة ممتعة .

رأيت صحفنا كما عرفتها قبل أن أبرح الأرض وأعبر البحر وقبل أن تعصف الثورة ببغى البغاة وطغيان الطغاة لم يتغير من سيرتها شى لا فى الظاهر ولا فيما ورائه من خفى الأشياء والأسرار . كلف بالأنباء المثيرة وشغف بالأخبار التي تروع أو تروع ، وتتبع للصغائر وإغراق فى البحث عنها ومضى فى الجدال الذى لا يغنى عن أصحابه ولا عن الناس شيئا.

الأحزاب ماضية فى خصوماتها كأن الدنيا لم تتغير من حولها والصحف الأسبوعية ماضية فى تلقط النوادر التى يتفكه بها الناس حين يلقى بعضهم بعضا على حساب هذا الحزب أو ذاك وعلى حساب هذا الفرد أو ذاك كأن مصر لم تستأنف فصلا جديدا من تاريخها الرائع الطويل وإنى لفى ذلك وإذا صحيفة تنشر حديثا لم أكد أقرأه حتى أغرقت فى ضحك عميق عريض ولكنه على ذلك مؤلم ممض . فهذا الحديث يمسني أنا ويمس علمى باللغة العربية وسوء تصرفي فيها . وما رأى القارئ فى أنى لا أحسن تعدية الأفعال وإنما أخلط فى حروف الجر تخليطا معيبا ولا أحسن استعمال الهمزة وإنما انحرف فى هذا الاستعمال عما جاء في شعر زهير وعما جاء فى مغنى اللبيب لابن هشام . وقد أغرقت فى هذا الضحك العميق العريض المؤلم الممض لا لأنى أنكر على صاحب هذا الحديث شيئا مما قال . فالناس جميعا يعلمون أنى لا أحسن اللغة العربية ولا أجيد التصرف فيها . والناس جميعا يعلمون أنى لست من الكتابة ولا من الأدب الرفيع فى شى ، وإنما متكلف ثرثار لا أعرف كيف أبدأ ولا أعرف

كيف أنتهى ولا أعرف كيف أقول . الناس جميعا يعلمون هذا وأنا أعلمه أيضا . ولست أنا الذى طلب إلى الناس أن يسمونى بما شاءوا من الأسماء وأن يلقبونى بما أحبوا من الألقاب وإنما هو حب الناس للعبث وكلفهم بالدعابة وتهالكهم على الفكاهة قد دفعهم إلى ما اندفعوا إليه وورطهم فيما تورطوا فيه .

لم أمعن فى الضحك إذن لأنى أنكرت من هذا الحديث شيئا وإنما أمعنت فى الضحك العميق العريض الطويل الممض لأنى ذكرت تلك الصورة التى استقرت فى نفسى لمصر قبل أن تصل إلى الصحف بساعة أو بعض ساعة ثم رأيت هذا الحديث الصغير الضئيل وليس شى من الأشياء يدعو إلى الضحك والإغراق فيه كاجتماع النقائض حين تتباعد الآماد بينها . ملك ينزل عن العرش مذعنا لإرادة الشعب وحياة عامة تتغير . وتريد أن تنقلب رأسا على عقب ونظم سياسية اجتماعية تريد أن تتحول لتبرأ ما جرى فيها من الفساد وبلد يخلق خلقا جديدا وتاريخ يستأنف من فصوله فصلا يريد أن يكون رائعا بارعا خلابا للقلوب والعقول والابصار والاسماع كل هذا فى ناحية وأمامه فى ناحية أخرى شيخ من شيوخ اللغة أو شاب من شبابها يتتبع أغلاط كاتب من الكتاب ويعيب على الأهرام أنه من كتابها ويطلب إليها أن تصحح فصوله قبل أن تنشرها ، ضخامة ضخمة من جهة وصفر صغير من جهة أخرى وأشد من ذلك إيذاء للنفوس وإيلاما للقلوب أن هذا الصفر الصغير ليس فذا ولا نادرا . ولكن له أمثالا كثيرة فى صحف كثيرة وهذه الأمثال لا تمسنى من قريب أو بعيد وإنما تمس غيرى من الناس . وليس المنكر فيها أنها تعيب هذا الرجل أو ذاك بالحق قليلا وبالباطل كثيرا وإنما المنكر فيها حقا هو أنها صغيرة ضئيلة بالقياس إلى ما ينبغى أن يأخذ على المصريين جميعا طرق التفكير والشعور وطرق الكتابة والحديث .

لقد كانت بينى وبين قوم من المصريين خصومة فى شئون التعليم كنت أقول وكانوا يقولون وكنت أقدر أن أرد على أحدهم ذات يوم ولكن الأنباء تحمل إلى أحداث مصر فأعرض عن تلك الخصومة لا عامدا إلى هذا الإعراض وإنما اضطرتنى إليه الأحداث اضطرارا . فما حديث المجانية أو

ما حديث بثينة وجميل فى بلد ينهار فيه نظام ليقوم مقامه نظام آخر.

وقد ساءلت نفسى دائما وفى كثير من الالحاح عن بيت المتنبى :

وإذا كانت النفس كبارا

تعبت فى مرادها الأجسام

كيف يصبح لو أننا وضعنا فيه صغارا مكان كبارا واعترف بأني ذكرت هذا البيت وذكرت السؤال الذى طالما ألقيته على نفسى حين قرأت الصحف التى وصلت إلى من مصر منذ أيام ورسمت قائدنا العظيم الذى غير حياة مصر فى أيام قليلة بل فى ساعات قليلة فرد اليها شرفها وكرامتها فى داخل البلاد وخارجها وأشعر كل مصرى بأنه يستطيع أن يقول للظالم لا وأن يمتنع فى عزة وإباء على كل من يسومه الخسف ويريد به ما لا

رحمت قائدنا العظيم حين رأيت من حوله قوما قليلين أو كثيرين ما زالوا عاكفين عن صغائرهم يتتبعونها ومشغوفين بشخصهم يبدلون فيه ويعيدون كأن شيئا من حولهم لم يتغير.

ما أكبر مصر وما أصغر ما صار إليه بعض أبنائها وما تقول فى أسود تزأر وإلى جانبها ذباب يطن وضفادع تملأ الجو نقيقا .

ما أشد حاجة المصريين والمثقفين منهم خاصة إلى أن يقدروا وطنهم حق قدره ويعرفوا أنه أكبر وأعظم وأبعد صوتا من هذا السخف الذى يمعنون فيه ، ليكن فلان عالما أو جاهلا وليكن فلان قدما أو فصيحا وليكن فلان حليما أو سفيها فأى خطر لهذه الصغائر الآن حين تقبل مصر على ما هى مقبلة عليه من عظائم الأمور .

أقول هذا كله وأنا أبعد الناس عن اليأس والتشاؤم وأقربهم إلى الرجاء والتفاؤل فقد تخلق مصر خلقا جديدا وتتغير نظمها المختلفة تغيرا خصبا . ويظل فيها مع ذلك من أبنائها نفر طال تأثرهم بالحياة القديمة واشتد حتى شاخوا فيها وإن لم يتجاوزوا طور الشباب :

والشيخ إن قومته من زيغه

لم يقم التثقيف منه ما انحنى

فأى غرابة فى أن يشغلهم طنين الذباب ونقيق الضفادع عن زئير الأسود وأى غرابة فى أن يحتاجوا إلى وقت أطول من هذه الأسابيع التى مضت منذ كانت الثورة ليشعروا بأن الدنيا قد تغيرت من حولهم وأن شؤون الإصلاح السياسى والاجتماعى والعقلى أجدر أن تشغلهم عن تتبع الصغائر والتهالك عليها إنهم يسمعون أن مصر تريد أن تغير نظامها الاجتماعى فتجعل توزيع الثروة عادلا ملائما للحق والإنصاف وهى تفكر فى تحديد الملكية ورفع الضرائب وتمكين الفارغين من أن يعملوا وتمكين العاجزين عن العمل من أن يعيشوا وتمكين الجاهلين من أن يتعلموا وتمكين الضعفاء من أن ينتصفوا من الأغنياء . يسمعون هذا كله فلا تصغى إليه قلوبهم ولا عقولهم وإنما يعيبون كاتبا بأنه وضع عن مكان على ويعيبون سياسيا بأنه ابتسم فى غير موضع للابتسام . ولابد من أن يأتى يوم قريب أو بعيد يفيق فيه هؤلاء الناس من نومهم العميق ويتنبهون إلى أن زمن الصغائر وتتبعها قد انقضى ولو إلى حين . وإلى أن لوطننا ولأنفسنا علينا حقا هو أن نعني بالمهم من أمره وأمرها حتى إذا فرغنا من ذلك وأتيحت لنا حياة الأمم الحرة الراقية جاز لنا يومئذ ويومئذ فحسب أن نفرغ لتتبع الصغائر واللامعان فى السخف . نلهو بذلك ونستريح إليه لنستأنف حياة الجد والكد بعد قليل من اللهو والراحة . ولكن هؤلاء الناس سيقرأون هذا الحديث ساخرين منه متتبعين ما قد يجدون فيه مما لا يلائم لسان العرب ومختار الصحاح وسيقولون مازال هذا الرجل كما عهدناه ثرثارا لا يحسن أن يكتب ولا يعرف كيف يقول . فدعهم يخوضوا ويلعبوا حتى يأتى يومهم الذى يوعدون .

طه حسين

لأهرام ١٩٥٢\٩\١٦